في دور الشعراء!

منذ تطاول القهر العثماني على الإنسان العربي، خرج الشعر إلى مربد العمل الوطني أو القومي الواسع، وأمسى أداة فعّالة في مسيرة الكفاح ضد السيطرة والظلم والتتريك التي مارسها غلاة الاتحاديين على شعوب الامبراطورية العثمانية. فكان قادة العمل الوطني والقومي من جمهرة المثقفين المتنورين، ولا أظن مثقفاً، هائيك المرحلة، لا ينظم الشعر في ما يرغب من قول يثير به حماسة الآخرين، لأنّ الشعر أبعد صوتاً من النثر عن مخاطبة الجمهور وحثّ وجدانه على الفعل الوطني فهو يعشق الشعر ويحفظه ويرويه في الليالي الساطرة والمواقف العنيفة.

وقد اعتمد المناضلون في مسيرتهم النضالية ثورة ضد أشكال التميّز القومي والطغيان العنصري، فأسست لعقيدة الشعرية محل شبيهة لدى الحاكم أو السلطان وهي نافذة المثقف ووسيلته إلى العقول والقلوب.

الشاعر قبل الناثر، ينتفض بمجد أمته الغابر، يندب حالها الحاضر، مستحثاً ضمائر الشعب مستنفراً هممهم انه شعلة متقدة، بالكلمة يدعو إلى الثورة لا مجرّد الثرثرة، وإلى جانبه سائر المثقفين المنشدين وبالحرف يصنعون الجملة المفيدة في معادلة الكفاح السياسي هنا أو هناك، وليس لهم غير هذا الفناء الأبدي يصدح به فوق كل هضبة يرتقيها ضد أي فاسد ومغتصب عات.

هاجس المثقفين في بلاد النّاس وحتى ادبائنا في غابر الأزمنة، الخروج من قيمة الاعجمي أو المستبدّ ونهبه الخيرات، والعيش في ظلال الاستقلال والحرية والمساواة. لذا، نراه يقرّ برأيه في قبضة الحاكم المستبد، سلاحه الكلمة وفن الشعر الذي يمسي انشودة على فم الناس سرّاً وعلانية.

لقد انتاج الانتداب الفرنسي للأغنية الوجدانية أن تظهر على وجه هذا الفن القومي ولّذاع على المنابر والصحف، فيما ظلّت الانشودة وهي الصوت الأقوى في التحدي الوطني ومقارعة الانتداب، تورّع سرّاً بين النّاس، وقد طاردت سلطان الانتداب حتى امست القصيدة تكتب وتوزّع بلا توقيع، كأنها منشور سياسي.

الأدب عموماً - والشعر خصوصاً - أداة نضالية رئيسة في إذكاء الحماسة الوطنية والاندفاع القومي، وتأليب الغضب على الخصم المشاكس والعدو الأجنبي، وسوف يبقى هذا الصوت الصادح في مسيرة الإنسان الفنان، مرآة الفعل الإنساني، وإن اختلفت مهام النشاط في البواقيات من الأعوام قبل- نهاية الأزمنة!

هذا، وليتجنّب بعضهم، في ثرثراتهم، مساخر تضحك الثكلى وتدمي الضاد وأبناء الضاد، والأجانب، على السواء!

د. جهاد نعمان

استاذ في المعهد العالي للدكتوراه